

هشام مداقين-جامعة محمد بوضياف المسيلة-الجزائر

## تحولات الخطاب الأدبي المغاربي من النموذج المشرقي والأثر الغربي إلى أفق الإبداع والتميز

تحاول هذه المداخلة تتبع حركية الأدب المغاربي العربي خاصة في العصر الحديث الذي شهد قفزات نوعية جعلت الحديث عنه ينطلق من مجموعة أطر وتصورات كلية وخاصة، اعترفت أخيرا بحضوره اللافت كمكون مستقل لا يشبه إلا ذاته، وقد تضافرت العديد من الروافد أهمها الاتكاء على التراث العربي المشرقي قديما وحديثا، ثم الانفتاح على الحداثة الغربية إن في لسانها أو في تصوراتها عن الإبداع والفن، لتكوّن في الأخير أعمالا بارزة تجاوزت حدودها إلى العالمية، وأصبح رصد النماذج المغربية المتألقة أدبيا في الرواية أو الشعر أو حتى الكتابة النقدية والفكرية لا فكاك منها في رصد الإبداع العربي وليس المغربي فقط وتحول المشرقي من الاعتداد بالنفس إلى الارتداد لكل جديد من أهل المغرب سواء في الإبداع الأدبي أو المنتج الفكري.

ولا أدل على ذلك من النجوم التي سطعت في المغرب الكبير وأضاءت المشرق العربي وامتد صداها إلى ما وراء المتوسط وأبعد، شاهدة على ظاهرة فنية متميزة ومتفردة في مجالها ومكوناتها.

وإن الحديث عن الأدب المغاربي ليس بالضرورة تكريسا للتقسيم الجغرافي أو الاستعماري الذي يستحضر دائما ما يقابله وهو الأدب المشرقي، من منظور التحيز لأحد الطرفين أو الأدبيين، فاللسان العربي يسع الجميع ويشمل أيا كان من أي مكان إذ تعد رابطة اللسان من أوثق الروابط الإنسانية، كما أن الإبداع لا يوصف بالمشرقية أو المغربية وإنما الإبداع صرخة إنسانية تعانق المستحيل وتتفطت من كل قبض جغرافي أو إثني أو لغوي لتفرض حضورها العابر للحدود والأزمنة والعصبيات،

ومهما اختلفنا في مفهوم الإبداع وتحديد مقاييسه ومحدداته، يبقى الزمن وحده حكماً وكفيلاً يستبقي منه ما يشاء، وأما ما سوى الإبداع فسرعان ما يطويه الزمن كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

ومن هنا كان الحديث عن الأدب المغربي هو إبراز لمظاهر الإبداع المتميزة في خصائصها النوعية وخصوصيتها الحضارية والتاريخية التي جعلت منه حالة مختلفة ومتفردة تستوجب التنويه والإشادة، ويمكن الإشارة إلى أهم العناصر المميزة للمغرب الكبير والتي كانت معيناً للأدباء والمبدعين المغربية في الكتابة والإبداع :

- العمق الإفريقي للمغرب
- تبعات الاستعمار الفرنسي
- الأصل الأمازيغي والبربري
- البعد المتوسطي والغربي
- الوحدة الدينية (الدين الإسلامي، في المذهب المالكي) مقابل تعدد مذهبي وديني في المشرق
- التعدد اللساني واللهجي للمغرب الكبير: العربية والأمازيغية والفرنسية والإسبانية بشكل أقل
- بالإضافة إلى الاختلافات الثقافية والسياسية والاجتماعية والتاريخية التي شكلت مكوناً مستقلاً جعلت من المغربي حالة خاصة.
- من هذا المنطلق كان حديثنا مشتملاً على هذه العناصر المميزة من وجهة الإبداع في بعض النماذج البارزة التي تجاوزت تبعيتها للمشرق أو الغرب لتعبر عن الذات المغربية المتميزة والمتطلعة إلى آفاق أخرى، وبذلك يمكن تقسيم المداخل إلى العناصر التالية:
- الأدب المغربي والنموذج المشرقي
- الأثر الغربي في أدب المغربية (الرواية الفرنسية)
- مظاهر الإبداع المغربي:
- استلهام التراث من المحلية إلى العالمية (إبراهيم الكوني)
- التسامح الإنساني (كتاب الأمير لواسينييا لأعرج)

- وحدة الهم المشرقي والمغربي في رواية العلامة لسالم حميش

### الأدب المغاربي والنموذج المشرقي

الأدب العربي مشرقي النشأة والتطور لذلك كان لزاما على الأديب المغربي أن يعود إلى الأصول المشرقية في مرحلة التكوين والتعليم والتأثر قبل أن يلتمس شخصيته المتميزة، وهذا ما دفع بالأندلسي ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إلى جعل الأدب العربي المشرقي أغلب مادة العقد، أو هو من قبيل بضاعة الأديب البويهبي صاحب ابن عباد الذي لم يجد فيها جديدا يذكر، لكن الأندلسيين صنعوا فيما بعد لوحات بارزة جعلت من الشعر العربي الذي نشأ في أحضان الصحراء، يناوش الأنهار والأزهار والطبيعة الخلابة في شبه جزيرة أيبيريا، فكانت الموشحات والأزجال الأندلسية والطبيعة الفاتنة ناطقة بلوحات شعرية تقطر عذوبة ونعومة لا يضاهاها إلا رقة الجو الأندلسي البديع عند لسان الدين ابن الخطيب وابن زيدون وابن خفاجة..، ولم يكن العصر الحديث بأكثر اختلافا فقد كانت النهضة العربية مشرقية المنبت والظهور وتخلف المغرب العربي لظروف سياسية واستعمارية، جعلت التأسيس التاريخي يرجع دائما إلى الحركة العلمية والفكرية النشطة التي أعقبت حملة نابليون على مصر، لتمسك مصر بزمام الريادة الأدبية، ثم تتجلى بعد ذلك نهضة أخرى في الشعر خاصة، جعلت من الشام والعراق قبلة لها، وكان المغرب الكبير في هذه الأثناء يتشوف لهذا التنامي المتلاحق لحركة الإبداع الأدبي خاصة الحدائث الشعرية، وقد كان المغرب الأدنى أو تونس أكثر من تأثر بالزخم المشرقي الأدبي ممثلة في أكثر علمين شهرة وبروزا وهما الشاعر أبو القاسم الشابي والروائي محمود المسعدي، ثم المغرب الأقصى الذي مثل الحدائث الشعرية في شخصية محمد بنيس، لكننا نستطيع القول بأن عمل المسعدي خاصة (حدث أبو هريرة قال) يعد علامة فارقة في تحول الخطاب الأدبي المغاربي، إذ استطاع المسعدي أن يستثمر أكثر الحركات الفلسفية شيوعا وحضورا آنذاك وهي الفلسفة الوجودية في عمل ممتاز يقارب به الشخصية العربية والإسلامية ويساءلها بجذورها التراثية والأصولية عن مصائرهما في ظل إشكالات الراهن وتطلعات المستقبل العربي، ومن هنا كانت الرواية هي بحق بوابة الإبداع المغربي الذي سيشكل هويته الخاصة على يد ثلة من

الكتاب أثبتوا أن الشمس قد تشرق من المغرب أيضا عند كل من إبراهيم الكوني ومحمود المسعدي وشكري المبخوت والطاهر وطار وواسيني الأعرج وأحلام مستغانمي وابن سالم حميش ومحمد زفزاف وأحمد المديني... وغيرهم كثير(01).

### الأثر الغربي في أدب المغاربة (الرواية الفرنسية)

تعد الرواية الفرنسية المغاربية أسبق في الظهور من الرواية العربية وذلك لعامل الاستعمار الفرنسي الذي عمر في المغرب العربي وشمال إفريقيا أكثر من أي منطقة أخرى فلا عجب أن يعتبر الكتاب المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية أو بلغة المستعمر أن الفرنسية غنيمة حرب وأنها لغة أدب وجمال وإبداع، ليس من حرج في جعلها أداة للتعبير عن قضايا المغرب الكبير ومشكلاته، وقد ظهرت أولى هذه الروايات إبان الاستعمار واستمرت بعده على يد كل من كاتب ياسين ومالك حداد ومولود فرعون وإدريس الشريبي... وربما الفترة الاستعمارية قد فرضت اللغة الفرنسية بالقوة على كل الأصعدة مما جعل من الفرنسية شرا لا مفر منه بالنسبة للكتاب والمثقفين، أو غنيمة حرب كما سماها كاتب ياسين وربما هي جريمة حرب أو هزيمة حرب عند غيره، وقد كانت الثقافة الفرنسية بما انطوت عليه من حداثة وحرية مجالاً رحباً للكتابة الأدبية استمرت حتى بعد الاستعمار، ولذلك قد يعذر الجيل الأول من الكتاب الذين افتتحوا هذا النهج لكن الإشكالية التي تطرح في هذا المجال هي جدوى استمرار هذه الظاهرة رغم زوال أسباب نشأتها، عند كل من الطاهر بن جلون وآسيا جبار ويسمينه خضرا.. هل يمكن اعتبار هذه الظاهرة شرخاً ثقافياً أو هزيمة معلنة أو عجزاً ذاتياً يدفع بصاحبها إلى الارتقاء في أحضان لغة أخرى مدعياً انتمائه إلى اللغة الأم أو الهوية الأم، أو هي حالة من الرفض المستमित لكل ما هو محلي غير عالمي مسجون تاريخياً في إطار لغة مؤدلجة وأصولية ومتخلفة(02) هي اللغة العربية، لا يمكن تبرير عجز اللغة العربية بتبني لغة أخرى ظهرت بعدها بقرون، والتردي الواقعي والاجتماعي والثقافي العربي والمغاربي لم تكن اللغة سبباً له، هذا للذين لا يميزون بين الفكر واللغة، ويعتقدون أن الواقع والفكر واللغة شيء واحد، وإذا كانت الرواية المغاربية المكتوبة بالفرنسية قد نالت حظاً وافراً من الحضور الفرنكفوني والعالمي بجوائز مشهورة كجائزة الكنكور، وترشيح أسماء أخرى

لجائزة نوبل كآسيا جبار، إلا أن إشكالية اللغة والانتماء لازالت حاضرة حضور هذه الروايات، رغم أن بعض الكتاب المغاربة يجاوز بين اللغتين في الكتابة (العربية والفرنسية) كأمين الزاوي، ربما من منطلق الحرية الإبداعية وهو شأن ليس حكرا على المغاربة، إذ قد نجد له العديد من الأمثلة في العالم، وكذلك في التراث العربي فابن المقفع كان لسانا في العربية ولسانا في الفارسية، لكن بعض الكتاب يرفض اختيارا أن يوضع في إطار الأدب العربي أو المغربي، ما يعبر عن حالة من الاستلاب المعلن كما هو الشأن عند كمال داود إذ يصف العربية بأنها (موسومة بالمقدس) وبالتالي فهي ليست لغة إبداع بزعمه، وهي حالة تعبر عن اتجاه التغريب في مقابل تيار التعريب عند بعض الكتاب (03)، وربما يمثل هذا الرأي على نشازه مجموعة ليست بالقليلة تعاني حالة من اليأس والأفق المسدود من واقع العالم العربي والمغرب الكبير الذي يعاني التخلف والامية والاستبداد والأصولية والعديد من الإشكاليات التي تجاوزتها العديد من الأمم إلا أنها لازالت حاضرة عربيا، ويمكن بشيء من الاجتهاد رد الكتابات المغاربية الفرنسية إلى أسباب من بينها:

- اعتبار اللسان الفرنسي بوابة للعالمية أو الشهرة.
- الاحتراف والتقدير الذي يحضى به الأديب والمبدع في الأوساط الفرنسية والأوربية، في حين قد يجمع أو يهمل المبدع المغربي.
- القيمة المادية المعتبرة للجوائز الأوربية، وكذلك عائدات الطبع والنشر التي تضمن لصاحبها حياة كريمة تمكنه من التفرغ للأدب والإبداع.
- نسبة المقروئية المرتفعة أوربيا في حين يقبع العالم العربي في أدنى المراتب من حيث نسبة القراءة، مما يجعل صوت الأديب المغربي يصل إلى أبعد مدى.
- محاولة انتهاك فرنسية الفرنسية من الداخل وإثبات لا واقعية أفكارها، في صورة الأديب المغربي البطل الذي استطاع اختراق العقل الغربي (04).

وربما حالة الاندماج الوهمي للأديب المغربي في المجتمع الفرنسي أو الأوربي سواء من حيث اللسان أو التجنيس عن طريق اللجوء أو الهجرة الطوعية، التي تشكل نوعا من الرفض المحلي على المستوى السياسي أو الإبداعي، تجعل من المنفى الاستعماري رد فعل سلبي على كل ما ينتمي للمغرب الكبير ثقافة وتاريخا، لتكون

اللغة الفرنسية هي المكون الأساسي المعبر عن هذه الحالة، رغم وجود حالات أخرى معاكسة أثبتت إمكانية التعايش بين (اللغة الأصلية والمنفى الاستعماري) كأداة أخرى للمقاومة والنضال وليس الاستسلام والاستلاب، ونعني بذلك أحلام مستغانمي التي تعيش في فرنسا وتنتج أبداع الروايات العربية أبرزها رواية عابر سرير، وجيمس ناغوي أو ناغويواثغو Nagugi Wa Thiongo الروائي الكيني العالمي الذي اختار أن يكتب باللغة الإفريقية المحلية بدل الانجليزية التي اشتهر بها كأديب عالمي كان قاب قوسين من نيل جائزة نوبل 2010.

وتبقى الرواية المغربية الفرنسية إشكالية حقيقية تعكس الواقع المغربي المعاش الذي لازال يعاني تبعية ثقافية وسياسية واقتصادية لفرنسا على حساب المكون الحضاري المحلي، وما الرواية إلا مظهر من مظاهر هذه التبعية، لذلك نستطيع القول أن الرواية الفرنسية المغربية ليست رواية عربية ولا فرنسية وإنما هي رواية مغربية، حاضرة مغاربيًا وفرنكفونيًا وأثبتت وجودها عالميًا مما يجعل من الواجب دراستها والإشادة بها.

### مظاهر الإبداع المغربي

ليس الإبداع حالة يمكن استعارتها من غيرها، أو تكرارها، الإبداع حالة لا تتبع إلا من ذاتها مجاوزة كل ما يحيط بها في لحظة تتصل بها اتصالاً لم يسبق من قبل، لذلك فإن المبدع لا يتبع نماذج جاهزة طامحا في الخلق، لأن ما ينتجه مرتهن في المتبوع لا يجاوزه لاعتقاد الكمال في المتبوع، وكما قال أبو بكر ابن عربي الفقيه المغربي "التابع لا يدرك المتبوع أبدا فيما هو تابع له فيه وإلا ما عاد تابعا" (05)، لذلك تحول الأديب المغربي من استلهام الأدب المشرقي قديما وحديثا واحتذاء للغرب الأوربي (من بينها الاستعمار في لغته) إلى محاولة الانطلاق من الذات المغربية العربية والإسلامية الأمازيغية والصحراوية لتشكيل الرؤيا المحلية بأبعاد عالمية وكونية تجعل من المغربي حكيما يساهم في رؤيا الكون وقلق الإنسان، وإن كانت النماذج المغربية متعددة ومختلفة المضامين والموضوعات إلا أنه اخترنا ثلاثة نماذج تدل على حضور هذا الإبداع المغربي عربيا وعالميا ونعني بذلك كل من المبدعين : إبراهيم الكوني وواسيني الأعرج في كتاب الأميرون سالم حميش في رواية العلامة .

## استلهام التراث من المحلية إلى العالمية (إبراهيم الكوني)

يعد إبراهيم الكوني(06) الروائي والأديب الليبي علامة فارقة في الأدب العربي والمغاربي إذا نال هذا المبدع مالم ينله روائي عربي آخر أو فرنكفوني من الشهرة والاحتفال عالميا في أوروبا وأمريكا واليابان، ورشح عدة مرات لجائزة نوبل كما نال العديد من الجوائز العربية والعالمية، حيث استطاع الكوني أن يغير خارطة الرواية العربية والعالمية ليجعل من الصحراء والتراث الشعبي المحلي موضوعا يتجاوز بها حدودها الجغرافيا إلى علاقة وجودية وفلسفية عميقة بين الإنسان والطبيعة تعيد أسئلة الإنسان حول الوجود والعالم في لحظة بدئية وأولية أنثروبولوجية لازالت تعد سرا مكنونا، لم تستطع الحداثة الغربية بآلتها العلمية والتكنولوجية التي طوعت الطبيعة وخيل لها أنها حققت انتصارا عليها باستفادها وتسخيرها لغايات الإنسان وأهوائه، إلا الاعتراف بالعجز الشامل لمنظومة الحداثة الغربية التي لم تنجح إلا في تجفيف الإنسان من إنسانيته وعزله عن الطبيعة وعن ذاته بفعل العقلانية الأداةية(07) أو التقنية المفرطة والنفعية التي أهملت كل ما هو روحي وإنساني وجعل النمط المدني الغربي والعولمي بفعل الهيمنة والسيطرة والإمبريالية أسلوبا واحدا للعيش تذوب من خلاله كل الخصوصيات الثقافية البشرية، من هنا كان الكوني متعاطفا مع الشغل المابعد حداثيومتطلعا من انتمائه القومي المختلف إلى الإحساس الإنساني المشترك بضرورة الاعتراف بالآخر المختلف والمتنوع خارج مركزية الذات الغربية التي لا ترى من العالم إلا نفسها ولا تؤمن بالتواصل خارج الهيمنة والمصلحة، فكانت الصحراء عالم الكوني المنفلت من كل سطوة و المتمد بلا حدود سياسية أو أيديولوجية يعانق المطلق بليله المكتنز بالأسرار فضاء للتأمل والتدبر، لقد كان الروائي العربي مشغولا بالمدينة والريف وبالتغير الاجتماعي والسياسي(08) بينما كان الكوني يخلق من الصحراء عالما آخر للرواية يقتحم مجهولته ويستنطق سكونها المطبق الذي تغدوافيه حبة الرمل رمزا يختبر حساسية الإنسان الشعاعية والفنية ويستفز كلما يقبع هناك في ذاكرة العربي يوم كان يناوش الصحراء ويناجي ليلا ويستأنس بأطلالها منذ امرؤ القيس، لذلك كانت الصحراء بما انطوت عليه من أساطير وخرافات من إنس وجن وحيوان وسحر.. عدة الكوني التي انفرد بها في خلق

عالم سردي ظلت عنه الأقلام العربية الحديثة، ووجد فيه الإنسان الغربي ما لم يجده في عالمه، وكان الإنسانية في أعمال الكوني تحن إلى أصولها الشفافة النقية من درن القبض والسطوة، وتعيد علاقتها بالكون على أساس من التعاطف والسلام، وهذا ما جعل الكوني كونيا حقا ويقراً في اليابان وأمريكا اللاتينية أكثر من العالم العربي.

### التسامح الإنساني (كتاب الأمير لواسيني الأعرج)

واسيني الأعرج(09) من أبرز الكتاب المغاربة حضورا في عالم الرواية العربية لأسلوبه الروائي الممتاز والاحتراف الذي يدل على حنكة سردية وأدبية قلما اجتمعت في غيره، جعلت منه قبلة القارئ العربي المثقف الذي يتذوق عبقرية اللغة السردية في أعمال واسيني، حيث تغدوا اللغة في حد ذاتها حقلا للتجريب والكشف عن طاقات وإمكانات تفتح عوالم أخرى للرواية العربية خارج المضامين والموضوعات، رغم أن الأعرج لا يميل من البحث والاجتهاد الدؤوبي خلق صور لا محدودة من الموضوعات المختلفة تاريخية أو سياسية أو اجتماعية... تدل على طاقة إبداعية متجددة وعلى ساحة فكرية رحبة وممتدة الأفق تجعل من الأعرج بحق أبرز الروائيين العرب المعاصرين، وعلى غرار أعمال الروائي الجزائري المشهورة عربيا وعالميا كطوق الياسمين والليلة السابعة بعد الألف ومملكة الفراشة الفائزة بجائزة كتارا للرواية العربية، يطالعنا واسيني الأعرج بعمل آخر ممتاز وهو رواية (كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد)الحاصلة على جائزة الشيخ زايد (2007)، التي تعيد صياغة سيرة الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس أول دولة عربية حديثة دون أن يمس الأعرج بوثوقية المصادر التاريخية رغم اشتغال الرواية على أبعاد الإنسان العربي المعاصر المهموم بمشكلات الآن والماضي.

ليست الرواية التاريخية قراءة سلبية للماضي أو محاولة تغيير له(10) وإنما هي رؤيا كلية تعيد موضوعة الماضي في الحاضر على نحو من المحاوره والفهم والتساؤل يسمح العمل الفني الروائي بذلك ليؤسس لإنسان الغد المتصالح مع ذاته وتاريخه، كذلك هي رواية كتاب الأمير قراءة أخرى للذات الجزائرية كيف أضاعت منح مهمة من مكوناتها الإنسانية والوجودية في ظل تردي الوضع الراهن، يبحث الأعرج



مشاهد متعددة من شخصية إنسانية شاملة تعتبر فريدة تاريخا وهي شخصية الأمير عبد القادر الذي كان مدرسة للمستعمر الفرنسي ومعلما للغطرسة العالمية المتدثرة بدثار المعرفة والقوة، فكانت شخصيات الرواية فضاء رحبا لخلق صورة أخرى للعربي المسلم على النقيض تماما من الصورة المشوهة التي يتداولها الإعلام العالمي اليوم عن العربي المرتبطة بالخوف والرعب والإرهاب ، لذلك عشق القس (مونيسيور أنطوان ديبوش)(11) - أحد شخصيات الرواية - تراب الجزائر، حيث افتتح الأعرج روايته بمشهد جون موبي خادم القس وهو يعيد رفاقته من بوردو إلى الجزائر تنفيذًا لوصية سيده، ثم يتدخل جون موبي في الرواية ليكون أحد روايتها، ويسرد حكاية القس ديبوش والأمير عبد القادر، حيث تشكل رؤية الآخر للذات العربية المسلمة أحد المرتكزات التي تقوم عليها الرواية في استراتيجية محكمة يتبعها الروائي لاختراق الهوية بين الأنا والآخر، وذلك في شخصية الأمير الفذة التي أثرت بنبهه وشهامته وحكمته وحلمه وسماحته في القس ديبوش وأخرجت أعتى الإمبراطوريات الاستعمارية في وقته، فلا جرم أن تكون شخصية الجزائري العربي المسلم الأمير عبد القادر شخصية إنسانية كونية ورمزا للتسامح، نحن اليوم في أمس الحاجة إلى استلهاها وإحياء مكوناتها من أجل مواجهة الذات قبل الآخر، ولا شك أن كتاب الأمير لواسيني الأعرج هو مساهمة عربية مسلمة في الفكر الإنساني العالمي الذي مبناه التعايش والتسامح والعدل والحرية، في ظل فكر آخر لا يزال يتغذى على مقولات نيتشه وصراع الحضارات لصامويل هنتكتوندون أن ينس كتاب الأمير لكيافليحيث من الصعب التفريق بين إرادة الهيمنة وإرادة المعرفة.

### وحدة الهم العربي بين المشرق والمغرب في رواية العلامة لبن سالم حميش

لقد كانت الهوية المغاربية المتشكلة تاريخيا في صورة حقبات ومراحل تشهد على الصراع والغلبة بتعبير ابن خلدون، أو النهوض والسقوط الذي تتسم به الحضارة في بداية تشكلها وازدهارها إيذانا بنهايتها وانهارها أحد الفضاءات الممتازة التي جعلها الروائي المغربي بن سالم حميش(12) عالما لرواياته وأعماله الإبداعية، فعلى غرار مجنون الحكم التي ترصد فترة حكم الفاطميين ؛ الحاكم بأمر الله على وجه الخصوص وكذلك رواية هذا الأندلسي التي تناول فيها الروائي سيرة ابن سبعين،

نجد رواية العلامة الصادرة عن دار المعارف الجديدة عام 2001، حيث فازت بجائزة نجيب محفوظ للرواية العربية في الدورة السابعة، والتي سبقته الروائية الجزائرية أحلام مستغانمي بالفوز بها سنة 1998، على صعيد الروائيين المغاربة الذين فازوا بالجائزة.

وتعد الرواية عملا ممتازا يتداخل فيه النص الفلسفي والنص التاريخي والأسلوب السرد في مقارنة الشخصية اللامعة عبد الرحمن بن خلدون التي كانت شاهدة على مرحلة حرجة من تاريخ الحضارة العربية والإسلامية آذنت بالسقوط وأسلمت نفسها للركود تمهيدا للانسحاب النهائي من التاريخ وصناعته في ظل ظروف تاريخية وسياسية وثقافية... عصفت بالمغرب الكبير كما عصفت بالشرق، والأستاذ حميش إذ يعود إلى عصر ابن خلدون وظروفه فهو لا يستثنى ما يمر به العالم العربي اليوم من أوضاع لها خصوصياتها إلا أنها لازالت تعاني ما كان يعانيه المثقف في تلك المرحلة من اغتراب وتهميش واستبداد، يقول رجاء النقاش عن الرواية: "تعالج رواية العلامة مشكلة الصراع بين المثقف والسلطة. وقد حقق كاتبها الروائي بن سالم حميش عملا أشبه بقطعة موسيقية تتألف من لحنين: لحن تاريخي ولحن عصري. والرواية بذلك تخاطب عصرنا من خلال قناع شفاف من التاريخ" (13).

يفتح الروائي عمله برحلة ابن خلدون والعالم والفقير المغربي إلى القاهرة بأمر السلطان الظاهر برقوق لتولي القضاء فيها، وقد اجتمعت على ابن خلدون نواصب الدهر وخطوب الزمان مما خبره في المغرب ومما أحاط به في القاهرة التي لم تكن أحسن حالا من بلاد المغرب، لقد كانت القاهرة في عين ابن خلدون حضرة الدنيا ويستأن العلم وإيوان الإسلام، لكنها سرعان ما كشرت عن أنيابها، وكشفت في مواطنها "عن فساد مستشري في العادات والتقاليد، والغلبة كلها لذوي المال والسلطان، والحييف نازلا على كواهل المعوزين، وأهل الفاقة.." (14).

ولم يكن عبد الرحمن متمرسا بأفانين السعاليات والكيد، ولا ذا باع في أساليب التآمر والنصب، لأنه لم يغرق قط في سياسة وقته حتى الأدقان، ولم يقبل في المعرفة بضعف البضاعة وهزل الزاد، ولو فعل هذا وذاك - لا قدر الله - لكان واحدا من

فقهاء الظلام وقضاة الجور وسماسرة السوء، وغيرهم من الذئاب والثعالب الذين تعج بهم دواليب الدولة ومطابخها." (15).

لقد كان ابن خلدون رغم فقدته للأهل إذ غرقت أسرته في البحر واغترابه عن وطنه وما أحاط به من كيد وابتلاء، بالإضافة إلى منصبه ومكانته من السلطان محاطا بكل المغريات، بالإضافة إلى السمات التي طبعت أهل زمانه من الاستخفاف بالحق والتكالب على الدنيا في جمع المال والتملق للسلطان طلبا للمنصب والجاه وبذل كل رخيص ودنيء في سبيل تحقيق المصالح الشخصية، في زمن شهد انهيار القيم الأخلاقية والقيم المعرفية والعلمية، حيث تجلت مظاهر هذا الانهيار في استبداد السلطان وجور القضاة والحكام وتفشي الجهل والفقر والوباء...إلا أن عبد الرحمن لم يركن لزمانه ولم يتزعزع أو يتزحزح عن إيمانه بالحق والعدل، وما يقتضيه طلب الحقيقة وروح الديانة، لذلك ثبت ابن خلدون في كل المصائب والصعاب متحملا كل التبعات والعواقب، وكان كمن عرف زمانه فمانه وميز مكانه فكانه، لذلك لم يشهد التاريخ بعلم عبد الرحمن وبراعته في كتاب العبر فقط، بل شهد له بالعدل والإنصاف في شخصية القاضي والفقير المالكي الورع، التي حاول بن سالم حميش أن يستجلي مظاهر هذه الشخصية المستقيمة في مجتمع فاسد، ليحاكم عصرنا هذا الذي هو امتداد لإنسان ما بعد الموحدين كما قال مالك بن نبي، الإنسان الذي ورث الجهل والفشل والتواكل والاستخفاف بقيم الحق والعدل والحرية، وصعر خده للمبادئ التي تنهض بالعمران والإنسان كما تمثلها ابن خلدون.

## الهوامش

- (01) ينظر الملحق الذي يضم تراجم لأشهر الروائيين في المغرب العربي الكبير في كتاب الأمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغربية (المفهوم والممارسات)، الجزائر، دار النشر راجعي، 2009.
- (02) أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغربية، ص. 62.
- (03) عبد الله الركيبي: الهوية بين الثقافة والديمقراطية، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2009، ص. 147.
- (04) أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغربية، ص. 59.
- (05) ينظر: فيصل جلول: نحو أفق للنقد والحوار حول بعض محاور الثقافة السياسية العربية، ضمن كتاب (حوار المشرق والمغرب)، محمد عابد الجابري حسن حنفي فيصل جلول، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط. 02، 2010، ص. 29.
- (06) إبراهيم الكوني روائي ليبي من أصل طارقي ولد بمدينة غدامس الليبية سنة 1948، درس الأدب والنقد بمعهد غوركي للأدب بموسكو، ألف في الأدب والنقد والتاريخ والفكر، واشتهر بروايات عدة أهمها نزيه الحجر والتبر وواو الصغرى، حصل على العديد من الجوائز العالمية ورشح لجائزة نوبل للأدب وامتدت شهرته إلى اليابان حيث ترجمت أعماله إلى العديد من لغات العالم.
- (07) ينظر: كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط. 01، 2010، ص. 13.
- (08) روجر آلان: الرواية العربية مقدمة تاريخية ونقدية، تر: حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ص. 313.
- (09) واسيني الأعرج روائي جزائري ولد في 8 أوت 1954 بقرية سيدي بوجنان - تلمسان أستاذ جامعي. شغل منصب أستاذ كرسي في جامعة الجزائر المركزية وجامعة السوربون في باريس. يعد أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي نتيجة غزارة إنتاجه الروائي من رواية البوابة الحمراء وضمير الغائب إلى مملكة الفراشة وكتاب الأمير، فاز بالعديد من الجوائز العربية والوطنية أهمها جائزة الشيخ زايد وجائزة كتارا عن روايته مملكة الفراشة 2015، وغيرها.
- (10) عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، الكويت، عالم المعرفة، ديسمبر 1998، ص. 32.
- (11) ينظر فاتحة الرواية، واسيني الأعرج: كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، بيروت، دار الآداب، ط. 02، 2008.
- (12) بن سالم حميش روائي وشاعر مغربي ووزير سابق من مواليد 1949 في مدينة مكناس يزاول تدريس الفلسفة في الجامعة ويكتب باللغتين العربية والفرنسية. عرف برواياته التي تعيد صياغة

شخصيات تاريخية أهمها شخصية ابن خلدون في رواية العلامة وابن سبعين في هذا الأندلسي والحاكم بأمر الله الفاطمي في مجنون الحكم.

(13) ينظر ما قاله النقاد عن الرواية في طبعة القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة نوفمبر 2002 لرواية العلامة لسالم حميش.

(14) بن سالم حميش: العلامة، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2002، ص. 10.

(15) المرجع نفسه، ص. 09.